الإنسانية والضمان الاجتماعي في أهداف الزكاة ومصارفها

الأستاذ والدكتور محمد مصطفى كامل المدني

ملخص المقالة

الزكاة اسم لما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء. إن أعظم آفة تصيب المجتمع وتهز كيانه هزا أن يوجد فيه الثراء الفاحش إلى جانب الفقر المدقع، وأن يوجد من يملك القناطير المقنطرة ومن لا يملك قوت يومه ويسكن تحت أديم السماء بلاسكن. فالإسلام يسعى سعيا مشكورا بالزكاة إلى إزالة هذا التفاوت الشاسع البشع، وذلك بما يلي:

١- الزكاة هي أخذ من الغني والرد الى الفقير وبالتالي إغناء الفقير بقدر ما تسمح به حصيلة المجتمع، وإخراجه من دائرة الحاجة إلى دائرة الكفاية الدائمة.

٢- والزكاة كما أنها تطهير لنفس المسلم من الشح والبخل وهي أيضا من جانب آخر شفاء للمذكي من أمراض قلبية فتاكة من الاستغراق في حب الدنيا والحرص الجامح فيه. وهذا الإدمان يجعله بهيميا ووحشيا. فالزكاة تشفيه لما في الصدور من الوحشية والحسد والحقد والبغضاء التي ينشئها منع الزكاة.

٣- وبالزكاة تثبت القيم العظمى، والمقومات المعنوية الأصيلة، التي يحرص عليها الإسلام والمجتمع الإسلامي، فيتحقق التكافل والتضامن والتساند في أفراد المجتمع.

٤- والزكاة في الظاهر نقص من المال بإخراج بعضه، ففي الواقع يكون نماء وزيادة حيث أن هذا النقص الظاهري ورائه زيادة حقيقية، هذا الجزء القليل المدفوع يعود عليه أضعافه من حيث يدري أو لا يدري .

٥- ويحرص الإسلام على أن يعيش كل فرد من أبنائه في كفاية من العيش وأمن من الخوف، ليستطيع أن يؤدي عبادة الله أداء خشوع وإحسان، فالزكاة سبب كفية وأمن من الخوف.

٦- والزكاة تلعب دورا فعالا في أن يسود الإخاء والمحبة بين أبناء البشر كافة وأبناء مجتمعه خاصة. فإذا ساد الإخاء بما يشمل عليه من محبة ووداد، وما ينتج من تكافل وتعاون، فيسود الأمن والسلام في المجتمع وظلت السكينة والطمأنينة في قلوب الأفراد .

٧- والزكاة بالنظر لأخذها تحرير للإنسان مما يذل كرامته ومناصرة عملية وموازرة واقعية له في معركة الحياة الدائرة بينه وبين أحداث الزمن وتقلباته.

٨- والإسلام بالزكاة يقيم الرابطة بين الناس على أساس الأخوة الجامعة بينهم. وأصل هذه الأخوة هو الإنسانية المشتركة ولن تقوم هذه الأخوة إذا شبع أحد الإخوة ويموت الآخرون جوعا، فالزكاة تحل تلك المشكلة.

وبإيجاز أقول أن الزكاة تعد أول تشـــريع اجتماعي منظم في ســـبيل التضـــامن الاجتماعي، لا يعتمد على الصدقات الفردية التطوعية، بل يقوم على مساعدات حكومية دورية منظمة.

وقبل أن يعرف المجتمع الغربي نظام تأمين بقرون، كان المجتمع الإسلامي يؤمن أفراده بطريقته الخاصة، حيث كان بيت مال المسـلمين هو شـركة التأمين الكبرى التي يأوي إليها كل من نكبته الكوارث فيجد فيها العون والملاذ.

وأخيرا نحمد الله تعالى ونشـكره كما يليق بشـأنه وتتم بفضـله ومنه الصـالحات. والصـلاة والسـلام على رسوله الأمين إنه سميع مجيب وبالإجابة جدير .

الهدف من هذه المقالة

إبراز معاني الإنسانية الشاملة للإسلام، وتحقيق التضامن الاجتماعي خلال أهداف الزكاة ومصارفها.

أولا- تمهيد في شرح بعض المصطلحات

i. الزكاة في اللغة:

زكا الشيء زكاة إذا نما وزاد، زكا فلان إذا صلح، فالزكاة هي البركة والنماء والطهارة والصلاح.

ii. الزكاة في الشرع :

الزكاة اسـم لما يخرجه الإنسـان من حق الله تعالى إلى الفقراء. قال الله تعالى:(وفي أموالهم حق للسـائل والمحروم).

وعرفها الحنفية بأنها: تمليك جزء مال مخصوص من مال مخصوص لشخص مخصوص، عينه الشارع لوجه الله تعال .

وتطلق في الحصة المقدرة من المال التي فرضها الإسلام للمستحقين. كما تطلق على نفس هذه الحصة. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: " نفس المتصدق تزكو، وماله يزكو، يطهر ويزيد في المعنى."

والزكاة الشرعية قد تسمى في اصطلاح القرآن والسنة صدقة. قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
. ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ .

وقال في مصارف الزكاة: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ . وفي الحديث عن جابر عن النبي: «وليس فيما دون خمسة أوسق صدقة». وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذا إلى اليمن فيه: «أعلمهم أن الله افترض عليهم في أموالهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى الفقراء» هذه وغيرها من النصوص كلها وردت في شأن الزكاة عبرت عنها بالصدقة ، الصدقة زكاة والزكاة صدقة ، يفترق الاسم ويتفق المسمى.

iii. أهمية الزكاة ومكانتها في الإسلام:

الزكاة ثالث أركان الإسلام، قد ورد ذكرها في القرآن الكريم إثنين وثلاثين مرة (معرفة ومنكرة). وقرنت بين الصلاة والزكاة في ثماني وعشرين موضعا، أما كلمة "الصدقة " و"الصدقات" فقد وردت في القرآن اثنتي عشرة مرة .

إن الزكاة فرضت في المدينة في السنة الثانية - على المشهور- من الهجرة وحددت نصيبها ومقاديرها، وبينت بيانا مفصلا، وأرسل العاملين لجبايتها وصرفها، فأصبحت الدولة مسؤولة عن تنظيمها. ولكن يرى العلامة يوسف القرضاوي أنه لا يوجد دليل حاسم على تعيين السنة التي وقع فيها الزكاة .

فأعلن القرآن الكريم عن وجوب الزكاة بصيغ مختلفة: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَآتَوُاْ الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ . وشدد النكير على من منع الزكاة ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَاكَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَاكُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ .

أكد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة على فريضة الزكاة، ورغب في أدائها ورهب من منعها بأساليب شتى: عن ابن عمر رضي الله عنهما: «بني الإسلام على خمس: شهاد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا «

أمر الله تعالى رسوله الأمين بالقتال ضد من منع الصلاة والزكاة، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة«...

وأعلن الخليفة الأول أبوبكر رضي الله عنه القتال ضد من فرق بين الصلاة والزكاة حيث قال: «...والله لأقاتل من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه.... »

iv. فريضة الزكاة:

ثبتت بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة أن الزكاة مما علم من الدين بالضرورة، كما ثبتت فريضتها بالقرآن الصريح قال الله تعالى: (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) والسنة قال ابن عباس رضي الله عنه: حدثني أبو سفيان رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف» . عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «وبني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ... حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا» وبإجماع الأمة كلها خلفا من سلف، وأنها أحد أركان الإسلام ، وتناقل ذلك الخاص والعام وجيل إثر جيل .

v. حكمة الزكاة:

التفاوت بين الناس في الأرزاق والمواهب وتحصيل المكاسب أمر واقع طارئ بينهم، يحتاج في ضوء الشرع إزالته، ففرض الله على الغني أن ينفق على الفقراء والمحرومين. لأن فريضة الزكاة أفضل وسائل العلاج لذلك التفاوت، حيث إن فيها التكافل والتساند والضمان الاجتماعي المنشود في دين الإسلام.

vi. مفهوم الإنسانية والإخاء

قال الفيروز آبادي: الإنس: البشر، كالإنسان، الواحد إنسي وأنسي ج: أناسي ...الأناس: الناس...الإنسان: الكائن الحي المفكر، ...الإنسانية: خلاف البهيمية وجملة الصفات التي تميز الإنسان، وجملة أفراد النوع البشري، التي تصدق عليها هذه الصفات .

الإسلام دين الإنسانية والإخاء ويحرص كل الحرص أن تسود الإنسانية والإخاء أبناء البشر كافة، ويحقق لهم حقوقهم الإنسانية من الطعام والشراب والكساء والمأوى والعلاج وحفظ الدين والنسل وغيرها، لكل إنسان عامة، وأبناء مجتمعه خاصة. حيث إن الإنسان أكرم خلق الله وأشرف مخلوقاته كما يقول في خاتم كتبه :(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً).

يريد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، أن يبين مدى كرامة الإنسان وحذر الناس من خطر انتهاك حرمة دم الإنسان عامة والمسلم خاصة أو هتك عرضه أو أكل ماله ، وأكد الله عز وجل على حرمة دماء الإنسان وأموالهم وأعراضهم ،عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: ... قَالَ:«فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»

vii. مفهوم الضمان الاجتماعي

ضمن – ضمنا، وضمانة: أصابته أو ألزمته علة. ضمن الرجل ونحوه ضمانا: كفله أو التزم أن يؤدي عنه ما قد يقصر في أدائه. تضامنوا: التزم كل منهم أن يؤدي عن الآخر ما يقصر عن أدائه. التضامن: التزم القوي أو الغني معاونة الضعيف أو الفقير. (محدثة). التضامن الاجتماعي هو الأخذ بأيد الضعفاء من الفقراء والمساكين والغارمين وأبناء السبيل وأصحاب الكوارث وتسديد حاجاتهم والإقبال عليهم عند الحاجة.

يحرص الإسلام على أن يعيش كل فرد من أبنائه في كفاية من العيش وأمن من الخوف، ليستطيع أن يؤدي عبادة الله أداء خشوع وإحسان. ومن أجل ذلك التشريع الإسلامي يكفل لكل من يعيش في ظل دولته – مسلما أو غير مسلم – مستوى ملائما من المعيشة يجد فيه الغداء والكساء والمسكن، كي يتوفر له سبل العلاج .

وقبل أن يعرف المجتمع الغربي نظام التأمين بقرون، كان المجتمع الإسلامي يؤمن أفراده بطريقته الخاصة، حيث كان بيت مال المسلمين هو شركة التأمين الكبرى التي يأوي إليها كل من نكبته الكوارث فيجد فيها العون والملاذ .

الباب الأول: صيانة كرامة الإنسانية والإخاء في أهداف الزكاة

هناك أهداف كثيرة تهدف إليها الزكاة: من تطهير المال وصيانته وتنميته وعون الفقراء والمساكين، وتطهير النفس من داء الشح والبخل، وتعود المؤمن على البذل والإنفاق، وصيانة كرامة الإنسان وشرافته، وتوطيد المحبة بينهم، وشفاء القلب من حب الدنيا والبغض والحسد وغيرها وبيانها فيما يلي :

i. الزكاة تطهير للمال ومنتمية له

لقد عبر القرآن الكريم عن هدف الزكاة بالنظر للأغنياء الذين يؤخذ منهم فأجمل ذلك في كلمتين: التطهير والتزكية، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. وهاتان الكلمتان تتضمنان الكثير من أسرار الزكاة وأهدافها، وهما يشملان كل نوع من التطهير والتزكية، مادية كانت أو معنوية، هي تطهير لمال الغنى. فإن تعلق حق الغير بالمال يجعله ملوثا لا يطهر إلا بإخراجه منه. حيث يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «إذا أديت زكاة مالك فقد أذهبت عنك شره».

ومن معاني التزكية أنها نماء وزيادة لشخصية الغني وكيانه المعنوي فهذا هو النمو النفسي والزكاة المعنوية، فعطف التزكية على التطهير يفيد هذا المعنى الجديد والتأسيس أولى وأبلغ من التوكيد. حيث إن أي كلمة في القرآن لن تخلو من دلالتها ومعناها الأصيلة الجديدة .

الزكاة في الظاهر نقص من المال بإخراج بعضه، ففي الواقع يكون نماء وزيادة حيث إن هذا النقص الظاهري وراءه زيادة حقيقية، هذا الجزء القليل المدفوع يعود عليه أضعافه من حيث يدري أو لا يدري. إن الدينار في يد رجل تخفق له القلوب بالحب وتهتف له الألسنة بالدعاء وتحوطه الأيدي بالحماية والرعاية أشد قوة وأكثر حركة من بضعة دنانير مع غيره. إن الجزء الذي يؤخذ كل حول زكاة من مال المسلم، يكون حافزا له على تثمير ماله وتنمية ثروته إما بنفسه أو بمشاركة غيره حتى لا تأكلها الزكاة. وهذا التثمير يعود على رب المال بأضعاف ما أخذ منه. ولعل هذا التفسير الاقتصادي للنماء تشير إليه الآيات القرآنية: ﴿وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَآ آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ . و ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ . و ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ . وهذا الإرباء والتنمية والإخلاف سنة إلهية، تتم بعناية إلهية من غير شعور منا .

ii. صيانة كرامة الإنسان في الزكاة

أثبت الرسول الأكرم، حرمة الإنسانية العظيمة في حجته الوداع، أمام جم غفير من المسلمين، فقال لهم: «إن الله حرم عليكم دماءكم وأعراضكم وأموالكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»، وقال أيضا: «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله «

ما أعظم تلك المفاضلة من قبل النبي صلى الله عليه وسلم، عند المقارنة بين حرمة الإنسان وحرمة البيت العتيق عند طوافه بالكعبة وقال لها: «ما أطيبك وأطيب ريحك، وما أعظمك وأعظم حُرمتك! «والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ».

حيث نراه يقول في مكان آخر مثبتا حرمة دم مؤمن: «لو أن أهل السماوات وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار»

وذلك أن الإنسان أشرف خلقه وأعز بنائه، ولا يجدر لأحد أن يخرب هذا البناء، إلا خالقه ورازقه. بل ليس لأي إنسان حق أن يقتل نفسه، ومن قام على مثل هذه الجريمة قد حرم الله عليه الجنة فقال في الحديث القدسي: «بدرني عبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة.«

حيث رأينا كيف حرم الله عز وجل هذه الثلاثة، وجعل لها هذه المكانة المرموقة، كما حرمها في جميع الشريعة السالفة، ويقول:﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ و﴿وَلا تقْتُلُوا النفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ ﴾ .

وقد رأينا شدة حرصه صلى الله عليه وسلم، على حرمة دم الإنسان وماله وعرضه وكرامته عامة والمؤمن خاصة، صور كرامته خير تصوير وأعظم حرمته أبلغ تعظيم حيث إن الأنسان أشرف الخلق يتميز على غيره.

إن رسالة الإنسان على الأرض وكرامته على ربه تقتضيان ألا يترك للفقر الذي ينسيه نفسه وربه، ويذهله عن دينه ودنياه، ويعزله عن أمته ورسالتها، ويشغل عن ذلك كله بالتفكير في طلب الغذاء وستر العورة والحصول على المأوى. ومن هنا فرض الله الزكاة، وجعلها من دعائم الإسلام، تؤخذ من الأغنياء وترد إلى الفقراء، فيقضي بها الفقراء والمساكين حاجاتهم المادية من المأكل والمشرب والملبس والمسكن، والنفسية الحيوية من الزواج الذي قرر العلماء أنه من تمام كفايته، وبهذا يستطيع الفقير أن يقوم بدوره في طاعة الله ويحس أنه عضو حيوي في جسم المجتمع .

iii. الزكاة تجلب المحبة

من أهداف الزكاة المحبة، هي صفة إنسانية تجلبها الزكاة، يحرص الإسلام أن يسود الإخاء والمحبة أبناء البشر كافة وأبناء مجتمعه خاصة. فإذا ساد الإخاء بما يشمل عليه من محبة وحنان، وما ينتج من تكافل وتعاون، فساد الأمن والسلام في المجتمع وظلت السكينة والطمأنينة في قلوب الأفراد .

وقد رأينا صورة مثالية للمجتمع المتآخية المتحاب في المجتمع الذي ضمته مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، يتألف من المهاجرين والأنصار من الأوس والخزرج، ومع ذلك نجد بينهم الحبشي كبلال والفارسي كسلمان والرومي كصهيب، البدوي الخشن أبو ذر والمتحضر المتنعم مصعب بن عمير وغيرهم، ومع ذ لك كله قام ذلك الإخاء الفريد والألفة النادرة بينهم، قد رأينا مجتمعا غريبا لم يشهد التاريخ مثله فيما مضى من الأيام، منقطع النظير في الواقع. المجتمع الذي يحب الفرد فيه لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه، بل يؤثرون الإخوة المؤمنين على أنفسهم ولو كان بهم حاجة ملحة، ويجود بالطعام وهو أشد ما يكون جوعا، ويتنازل عن الماء وهو أشد ما يكون عطشا، وقد صور القرآن الكريم تلك الإخاء والمحبة النادرة في أبلغ صورة : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾.

iv. الزكاة شفاء للشح والقتور

الشح آفة مضادة للإنسانية خطرة على الفرد وعلى المجتمع، إنها تدفع من اتصف بها إلى سفك الدماء، ومياسة الشرف، وخيانة الوطن، وبيع الدين. قد جعل الله الفلاح مبنيا على الوقاية من هذا الداء الفتاك، حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. فنرى الرسول الخاتم يجعله أحدا من مهلكات الثلاث:" ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه."

ويحذر عن الشح والقتور وجعله سببا قويا للهلاك والدمار فقال: عن عبد الله بن عمرو فقال: «اتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم بالشح.»

فالزكاة كما هي تطهير من أدناس الذنوب عامة، كذألك هي تجلية من رجس البخل والقتور خاصة وبالأخص شفاء لما في الصدور من الحسد والبغضاء التي يجلبها منع الزكاة.

فإن الإسلام يحرص كل الحرص على أن يكون المسلم عبدا لله وحده، متحررا من الخضوع والتذلل لأي شيء سواء، فالزكاة تطهر صاحبها من خبث البخل المهلك والشح المقيت، وتصونه من الذل والإهانة وتحرره من تعاسة العبودية للدينار والدرهم . حيث صور الله تعالى تعاسة عبودية الإنسان للمال وشدة حبه له بأبشع صورة فقال: ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ . ﴿و قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلإِنْفَاقِ وَكَانَ ٱلإِنْسَانُ قَتُوراً ﴾ .
ويحذر النبي الأكرم المؤمنين من هذه التعاسة وتلك الدناءة بأسلوب مقذع عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم و القطيفة والخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض .»

v. الزكاة فيها شفاء القلب من الحرص في الدنيا

أباح الإسلام جمع المال، وأباح له طيبات الدنيا، ولكنه لم يرض ذلك له غاية قصوى في الدنيا، إنه خلق لغاية أسمى وأعلى ولدار أبقى، فالسعيد من اعتبر نفسه أمينا على المال ومستخلفا فيه، فأنفقه حيث أمر الله عز وجل: ﴿آمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ .

إن المال في نظر الإسلام خير ونعمة، يبتلى به المؤمن كما يبتلى بالشر: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ . ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ . فالزكاة تعويد وتمرين للمسلم على البذل والإنفاق على مقاومة فتنة المال وفتنة الدنيا، وذلك بتهيئة النفس للإنفاق في سبيل الله سعيا لمرضاة ربه.

إذن أن الزكاة كما أنها تطهير لنفس المسلم من الشح والبخل وهي أيضا من جانب آخر شفاء للمذكي من أمراض قلبية فتاكة من الاستغراق في حب الدنيا وشدة الميل إلى المال والمزيد منه والحرص الجامح فيه .

فالزكاة تحمي المجتمع من مرض الفقر والدولة من الإرهاق والضعف والجماعة مسئولة بالتضامن عن الفقراء وكفايتهم.

فاقتضت حكمة الشرع لعلاج صاحب المال بإخراج جزء منه من يده، ليصير ذلك الإنفاق كسرا من النهامة فيه والحب المتزايد منه، حيث أن سعادة الإنسان لا تحصل عند الانهماك فيه والاستغراق في حبه والشغف فيه، بل تحصل بإنفاق المال في طلب مرضاة الله، ففريضة الزكاة فيها شفاء لمرض قلبي خطير وهو إقلاع عن حرص الدنيا عن القلب .

vi. الزكاة تعويد المذكي على الإنفاق

الزكاة تدريب لصاحبها على خلق البذل والإنفاق. والمسلم الذي يتعود الإنفاق وإخراج زكاة زرعه كلما حصد، وزكاة دخله كلما ورد، وزكاة ماشيته ونقوده وقيم أعيانه التجارية كلما حال عليه الحول، وهذا المؤمن الحق يصير الإعطاء والبذل له صفة أصيلة فطرية له، هذا ما يرى علماء التربية أن للعادة أثرها العميق في خلق الإنسان وسلوكه حيث قيل: العادة طبيعة ثانية. ولم يزل القرآن الكريم يحث المؤمنين على الإنفاق منذ نزوله، وجعله صفة لازمة للمتقين ﴿ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾

ومن هذا المنطلق جعل القرآن الكريم هذا الخلق الطيب من صفات المؤمنين المتقين العريقة ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ . ولم يزل القرآن يجعل هذا الخلق من صفات المؤمنين الصادقين ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ .
وجعل الإنفاق وقاية من نار جهنم ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ .

الإنسانية والضمان الاجتماعي في مصارف الزكاة

مصارف الزكاة: هي ثمانية قد نصت عليها الآية القرآنية: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ . فدلت الآية الكريمة على أن الزكاة تصرف إلى هذه الأصناف الثمانية .

لا شك أن صرف الزكاة إلى تلك الأصناف الثمانية فيها معان سامية من الإنسانية وإعلاء كرامة الإنسان، وفي نفس الوقت ضمان اجتماعي وتكافل وتساند بين إفراد المجتمع بوسائل شتى وبيانه فيما يلي:

i. الزكاة هي تحرير من العبودية وتوطيد للحرية

إن الله تعالى قد كرم بني آدم وشرفهم بالحرية ولا شك أن العبودية نقص لشرف الإنسانية وكرامته. فالزكاة تحرير للإنسان مما يذل كرامته، الإسلام يريد للناس أن يتمتعوا بحياة طيبة وعيش رغيد، ويحسون فيها بالسعادة والأمن والشعور بنعمة الله يملأ عليهم أنفسهم وحياتهم.
إن القرآن الكريم قدم الحسنة في الدنيا على الحسنة في الآخرة، وعلم المؤمنين الصادقين الدعاء بالحسنة وقال: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ . ويجعل الرسول صلى الله عليه وسلم تحقيق المطالب المادية عنصرا هاما في تحقيق السعادة الحقيقية الأصيلة للإنسان. حيث يقول: ثلاث من السعادة: «المرأة تراها تعجبك، وتغيب عنها فتأمنها على نفسها ومالك. والدابة تكون وطيئة فتلحقك بأصحابك والدار تكون واسعة كثيرة المرافق» وفي حديث أخر «أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح ، المركب الهنيء « ..

وليس أدل على كراهية الإسلام الفقر وحبه للغنى والحياة الطيبة من أن الله تعالى امتن على رسوله بالغنى فقال: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴾ . وامتن على المسلمين بعد الهجرة فقال: ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ .

والزكاة بالنظر لآخذها تحرير للإنسان مما يذل كرامة الإنسان ومناصرة عملية وموازرة واقعية له في معمرة الحياة الدائرة بينه وبين أحداث الزمن وتقلباته. فالمذكي وازرها الفقير الذي أتعبه الفقر، والمسكين الذي أرهقته المسكنة، والرقيق الذي أذله الرق، والغارم الذي أضناه الدين، وابن السبيل الذي أيأسه الانقطاع عن الأهل والمال. فالفقر والمسكنة والدين والرق والانقطاع عن الأهل والمال هذه كلها نوع من العبودية وذل وإهانة لكرامة الإنسان وشرافته فالإسلام بتوزيع الزكاة على مستحقها حررهم عن ذل الفقر والمسكنة والدين والرق واليأس.

ii. الزكاة تصفية من داء الحسد والبغضاء

الحسد والبغضاء داء فتاك وآفة قاتلة وخسارة مدمرة للفرد والمجتمع، ولذا قال القرآن في وصف اليهود: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ . وحذر النبي أمته أن تدب إليهم دبيب العقارب السامة: «دب إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء هي الحالقة أما أني لا أقول: تخلق الشعر ولكن تحلق الدين .«

لن يجدي أبدا أن تلقي على الفقراء والمساكين كلمات بليغة في خطر الحسد والبغض وهم في كل لحظة تلدغهم براثن الفقر والمسكنة ومخالب الرق والدين واليأس.

فلذا حارب الإسلام هذه الأمراض النفسية الفتاكة والاجتماعية الحالقة باستئصال جذورها من المجتمع واقتلاع أسبابها من الحياة، ففرض عليهم الزكاة ليسير للعاطل العمل، ويضمن للعاجز العيش، ويقضي عن الغارم الدين، ويحمل ابن السبيل إلى أهله ووطنه، فيشعر الناس أنهم إخوة أبوهم آدم أمهم حواء، « كونوا عباد الله إخوانا «

فالإسلام يقيم الرابطة بين الناس على أساس الأخوة الجامعة بينهم وأصل هذه الأخوة هو الإنسانية المشتركة والعقيدة المشتركة ولن تقوم هذه الأخوة إذا شبع أحد الإخوة ويموت الآخرون جوعا، فتوقد هذه الظاهرة نيران الحقد والبغضاء في صدور المحرومين.

وهذا ما يقف الإسلام دونه ويزيله عن المجتمع بفريضة الزكاة. لن يرض أحد من الناس أن تصيبه الآفات المدمرة والناس واقفون أمامه لا يمدون إليه أيدي العون والمساعدة، فكذلك لن يرضى أيضا لأخيه المسلم، يريد الإسلام أن يخلق فيهم خلق التعاون و الإيثار ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ :«المسلم أخو المسلم» و« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه «

iii. الزكاة وتحقيق الضمان الاجتماعي

إن الزكاة تعد أول تشـريع اجتماعي منظم في سـبيل ضـمان اجتماعي لا يعتمد على الصـدقات الفردية التطوعية، بل يقوم على مسـاعدات حكومية دورية منظمة. هي مسـاعدات غايتها تحقيق الكفاية لكل محتاج: الكفاية في المطعم والملبس والمسـكن وسـائر الحاجات لنفس الشـخص ولمن يعوله في غير إسراف ولا تقتير.

ولقد سدت الزكاة كل ما يتصور من أنواع الحاجات الناشئة عن العجز الفردي أو الاجتماعي أو الظروف العارضـة. وإن كثيرا ممن يؤدون الزكاة في عام قد يكونون في العام التالي يسـتحقون الزكاة، لنقص ما في أيديهم عن الوفاء بحاجاتهم، فهي من هذه الناحية تأمين اجتماعي. وفئة ثانية لم يكونوا ممن وجبت عليهم الزكاة من قبل، ولم يشارك بشيء في حصيلة الزكاة، فهي من هذا الجانب ضمان اجتماعي. ولكن الزكاة في الواقع أقرب إلى الضمان منها إلى التأمين لأنها لا تعطي الفرد بمقدار ما دفع كما هو شأن النظام التأمين وإنما تعطيه بمقدار ما يحتاج إليه، قل ذلك المقدار أو كثر. ويحرص الإسلام على أن يعيش كل فرد من أبنائه في كفاية من العيش وأمن من الخوف، ليسـتطيع أن يؤدي عبادة الله أداء خشـوع وإحسان. ومن أجل ذلك التشريع الإسلامي يكفل لكل من يعيش في ظل دولته – مسلما أو غير مسلم – مسـتوى ملائما من المعيشـة يجد فيه الغداء والكسـاء والمسـكن، كي يتوفر له سـبل العلاج. وقبل أن يعرف المجتمع الغربي نظام التأمين بقرون كان المجتمع الإسـلامي يؤمن أفراده بطريقته الخاصـة، حيث كان بيت مال المسلمين هو شركة التأمين الكبرى التي يأوي إليها كل من نكبته الكوارث فيجد فيها العون والملاذ .

iv. الزكاة والمقومات الروحية والضمان الاجتماعي للأمة

تعتبر الأمة بمقوماتها الروحية، لا بمقوماتها الحسـية فحسـب، بل إن المقومات الحسـية لا قيمة لها بدون المقومات الروحية في بناء الأمة. لذا نرى الإسـلام يجعل الإنفاق من مال الجماعة على رعاية الأمة ودعمها فريضـة لازمة، فهي للكيان المعنوي كالطعام والشـراب للكيان الحسي، قد وضـع الإسـلام ثلاثة أصول لتلك المقومات الروحية التي أشارت إليها آية مصارف الزكاة فهي التالي :

١. توفير الحرية لكافة أفراد المجتمع: الآية الكريمة تنص على فريضـة فك الرقاب، بتحرير الأرقاء من ذل العبودية، أن التشـريع الإسـلامي يجعل تحرير الأرقاء بسـهم من أموال الزكاة فريضة عليهم، حيث قال الله تعال: (وفي الرقاب)

٢. بعث همم الأفراد ومواهب المروءة فيهم إلى بذل المكرمات التي تحقق للمجتمع منافع أدبية أو حسية أو ترد عنه مكروها يوشك أن يقع. إن في الأفراد طاقات لاحد لها لحب الخير، ومؤهلات لمختلف الخدمات الاجتماعية وهي كمواهب العقل لم يخلقها الله تعالى عبثا وسدى. فواجب الجماعة أن تتعهد تلك المؤهلات الفطرية بما ينميها ولا تترك للإهمال والجمود، فلابد أن يكون في هذا المال سهم لإطلاق همم ذوي المروءة وتنميتها وتشحذها، وتشجيع حوافز الخير فيهم، فلا يضام أحدهم بالفقر، على ما أسلف للأمة من خير، وهذا ما قدره الإسلام وقضى به الحق سبحانه في آية مصارف الزكاة: (والغارمين)

٣. رعاية العقائد والتعاليم التي نزلت لتزكية مبادئ الفطرة في الإنسان ، وبخاصة إحكام الصلة بالله ، وتبصير الفرد بغايته من الحياة ، وهو ما جاء في قوله تعالى في الآية نفسها : (وفي سبيل الله) هو ما كان في صيانة العقيدة والدفاع عنها والتمكين لها ، وامتداد سلطانها ...وبرعاية هذه الأصول الثلاثة تكون الزكاة قد قامت بدورها الفعال في تثبيت القيم العظمى ، والمقومات المعنوية الأصيلة ، التي يحرص عليها الإسلام والمجتمع الإسلامي ، ويتحقق التكافل والتضامن والتساند في الحياة، فثبتت أن علاقة الزكاة قوية ووثيقة بعلاج هذه المشكلات التي تعاني منها مجتمعاتنا الإسلامية .

٧. الزكاة تزيل الفوارق بين الناس

من أهداف الزكاة إزالة الفوارق بين أبناء الأمة بإغناء الفقير بقدر ما تسمح به حصيلتها، وإخراجهم من دائرة الحاجة إلى دائرة الكفاية الدائمة لا شك أنه هدف إنساني وإسلامي.

ولم يدع الإسلام الغني يزداد غنى، والفقير يزداد فقرا، فتتسع الشقة بين الفريقين، فتدخل الإسلام بتشريعاته الحكيمة لتقريب المسافة بين هؤلاء و أولئك، فعمل على الحد من طغيان الأغنياء والرفع من مستوى الفقراء، وذلك بتمليك كل محتاج ما يناسبه ويغنيه ، كأن يملك التاجر متجرا وما يلزمه ، ويملك الزارع ضيعة وما يلزمها وما يتبعها ، ويملك المحترف آلة حرفته . ومن هنا يعمل الإسلام على عدالة التوزيع، وتقارب الملكيات في المجتمع، وهو بنظام الزكاة والفيء وغيرهما يسعى إلى إعادة التوازن، وتقريب المستويات بعضها من بعض. كما صرح به القرآن الكريم في آية توزيع الفيء:﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ . هناك وضع الإسلام وسائل كثيرة للتقريب بين الأغنياء والفقراء من أهمها الزكاة إذ هي أخذ من الغني والرد الى الفقير. وأقل ما تحققه أن يختفي هذا الفريق الثاني الذي لا يجد مستوى العيش اللائق من الطعام والكساء والمأوى. وأكثر من ذلك أنها تعمل على أن ترتفع بهؤلاء الفقراء، ويقتربوا من أولئك الأغنياء ويدخلوا في زمرة المالكين .

إن أنكر مصـيبة يعانيها المجتمع أن يوجد من يملك القناطير المقنطرة ومن لا يملك قوت يومه، أن يوجد من يضع يده على بطنه يشكو زحمة التخمة، وبجواره من يضع يده على بطنه يشكو عضة الجوع. وأن يوجد من يملك القصـور الفخمة لا يحتاج إليها، وبالقرب منه من يسـكن تحت أديم السـماء. فالإسـلام يسـعى سـعيا حثيثا بالزكاة إلى حل تلك المشـكلة بإزالة هذه الفوارق الشـاسـعة بين الأفراد المجتمع، فيأخذ من الغني ويرد إلى الفقراء، فيخرجهم بها من دائرة الحاجة إلى الكفاية الدائمة. فيتحقق التكافل والتضـامن والتسـاند في أفراد المجتمع .الزكاة بالنظر لآخذها تحرير للإنسـان مما يذل كرامة الإنسـان ومناصـرة عملية وموازرة واقعية له في معركة الحياة الدائرة بينه وبين أحداث الزمن وتقلباته. وفي الأخير نحمد الله تعالى ونشكره كما يليق بشأنه والصلاة والسلام على رسوله الأمين إنه سميع مجيب وبالإجابة جدير.